حول «قصيدة النثر أو النثعيرة»

نشرت الآداب في العدد ٥/٦ أيار ـ حزيران ٢٠٠٢ مقالةً بعنوان «قصيدة النثر أو النثعيرة ـ الحقيقة خلف ركام الأوهام» للسيّد محمد توفيق الصوّاف، تتجلّى فيها أزمةُ المثقف العربيّ والثقافة العربيّة في صراعها الباعث على الألم المرّ بين الأصالة والحداثة. ولأنّ قارئ مقالة الصوّاف لا بدّ أن يلاحظ توتُّرَ الكاتب ومزاجيّته في انتقاء الأمثلة، ومن ثمّ عدوانيّته التي بدت في كثير من الأحيان شخصيّةً (ولاسيّما في إشارته إلى سيطرة شعراء قصيدة النثر على منابر النشر)، فإنّ تعليقنا هذا لا يعدو كونَه مجموعةً من الملاحظات التي تَقْصد إلى تهدئته، خصوصًا وأنّه أشار إلى كتاب ينوي إصدارَه حول قصيدة النثر.

أولاً: يحدّد الصوّاف قصيدةَ النثر بأنّها «ضربٌ قوليٌّ زائد حَشَرَه قائلوه، دون وجه حقّ، بين الشعر والنثر، رغم عدم انتمائه إلى أيّ منهما.» جاء ذلك بعد أن عَصَرَ كلَّ قواه «النقديّة» للإتيان بتعاريف ثلاثة لهذه القصيدة، فانتهى به مخاضُه العسير إلى الافتخار بنحت مصطلح جديد هو «النثعيرة،» ومن مقدّمة مسجوعة يبدو أنّه كتبها تحت تأثير قراءة طازجة لسيرة بني هلال أو سيرة الأمير سالم الزير. وهذا إنْ دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على قصور نقديّ وكسل بحثيّ، لو تجاوزهما الصوّاف لوجد أنّ التعريفات تجاوزت الخمسة والعشرين تعريفًا، ليس بينها طبعًا التعريفُ الأثير عنده: «القصيدة الخُنثى.»

ثانيًا: يأخذ الصوّاف على قصيدة النثر عدّة عيوب وَضَعَ في مقدّمتها «الطلاق مع موسيقى الشعر» ـ وهذا كما يبدو في المقالة هو بيت القصيد. فالصوّاف لا يريد التفريطَ «بالثروة الإيقاعيّة» التي يبدو أنّه يَجْهلها: فالمتمعّن بما جاء به من أمثلة «تفرِّط» بالوزن سيجد أنّ المقطع الذي استَشْهد به على «السماجة» من «قصيدة حبّ» لفوزي كريم موزونٌ واضحُ التفعيلة؛ وكذلك المقطع الذي أورده من «مؤسّسة الحبّ» لخليل صويلح، وإنْ كنتُ أعتقد أنّ هذا الأخير لم يتقصّدْ وزنَه وإنّما جاء هذا المقطع تحت تأثير «الثروة الإيقاعيّة» التي يتّضح أنّ الشعراء يعرفونها ويتفاعلون معها بِكْرًا أكثرَ من «النقّاد.»

ثالثًا: يتبيّن لقارئ مقالة الصوّاف أنّه غير مطّلع كفايةً على ضروب الكتابة النثريّة. فقد أشار عَرَضًا إلى المتصوّفة إلاّ أنّه استشهد ببيتين للحلاّج. وأظنّه حاول العثور على نصّ نثريّ يَفْهمه في كتابات المتصوّفة ليَسْتشهد به، كما فعل بالمقطع المأخوذ من رواية **الجحيم**، فلم يجد إلا ما يَدْعم عَكْسَ ملاحظته حول «تعمّد الغموض والإلغاز.» وأَحْسبه قد توقّف كثيرًا أمام عبارة النّفري في **المخاطبات**: «الحروف كلّها مرضى إلاّ الألف، أما ترى كل حرف مائل؟» واعتَبَرَها هذيانًا «نثعيريًا.»

رابعًا: لا يهتمّ السيّد الصوّاف إلاّ بما يَدْعم وجهة نظره. فإذا كان في قصيدة النثر نماذجُ لا علاقة لها باللُّغة والشعر والصورة مجتمعةً، مثل لقمان ديركي وفايز العراقي وغيرهما، فإنّ ضيق الصدر واللاموضوعيّة جعلا الصوّاف يتجاهل جبرا إبراهيم جبرا وتوفيق صايغ والماغوط ومِنْ بَعْدهم الكثير الكثير من الشعراء الذين يبدو أنّ الكاتب لم يجد في شعرهم نموذجًا لما يريد قولَه في قصيدة النثر. وإذا كان الصوّاف لم يجد ما يَسْتشهد به لأنسي الحاج غيرَ ما يَدْعم شتيمتَه كذلك، فمن المؤكّد أنّه وَقَفَ موقفَ الذهول والحسد أمام **الرسولة بشعرها الطويل حتى الينابيع**. وإذا لم يجد ما يأخذه على پول شاوول سوى جملة منشورة في جريدة، وربّما تكون روايتُها عن لسان پول على طريقة أبي هريرة «هذه من كيسي،» فإنّه قد أحسّ بالغبن عندما قرأ ـ إنْ قرأ ـ **أوراق الغائب** أو **كشهر طويل من العشق** الذي انتقم به پول لكلّ شعراء قصيدة النثر من متّهميهم بعدم معرفة اللغة وأسرارها.

خامسًا: إنّ نفي تسمية «شعر» عن كلّ ما هو غير موزون إنّما يَنْفي صفةَ الشعر عن كلّ ما نُقِلَ مترجمًا إلى العربيّة من لغات أخرى. وفي هذه الحالة لا بدّ من فطاحل خبراء بالوزن واللغات الأجنبيّة ليَنْقلوا إلينا شعرَ الآخرين موزونًا مقفّى إلى اللُّغة العربيّة. وإذا كان الصوّاف من بينهم فإنّنا سنَحْصل ونَبْتكر إيقاعاتٍ جديدةً نضيفها إلى «ثروتنا الإيقاعيّة.»

سادسًا وأخيرًا: إذا كان السيّد الصوّاف قد اعتبَرَ مقتنعًا أنّ اللّه يَضَعُ سرَّه في أضعف خلقه، وأنّه ذلك الأضعفُ الذي سَمَحَ لنفسه اشتقاقَ مصطلح «نثعيرة» ووصفَ شاعرَ قصيدة النثر بأنّه «نثعور،» فإنّي أَسْمح لنفسي نَحْتَ مصطلح يناسب ناقدًا مثلَه وهو «نَقْدَبُّور» من «نقد» و«دبّور» ـ تدليلاً على «نقد» لا يُسْمن ولا يُغْني من جوع، وعلى «نقّادٍ» همُّهم تعويضُ ما فاتهم من الشهرة.

محمد سعيد حمادة ـ بيروت